# خـــارج المكان

## مذكرات إدوارد سعيد

ترجمة: فوّاز طرابلسي

**عن دار الآداب تصدر قريباً مذكراتُ إدوارد سعيد:** خارج المكان (Out of Place)**، بترجمة فواز طرابلسي. ويغطّي الكتابُ الفترةَ الممتدةَ من طفولة سعيد حتى بدايات الستينيّات، حين نال شهادة الدكتوراه من جامعة هارفرد. فيما يلي القسم الأعظم من الفصل الثاني من هذا الكتاب.**

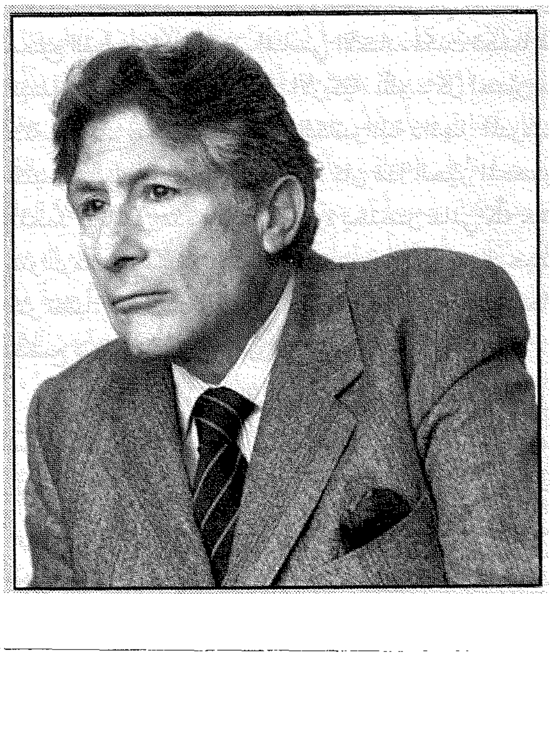

مع أنَّ والديّ كانا يعيشان في القاهرة عام ١٩٣٥، فقد خَطَّطا لكي أُولد في القدس لأسبابٍ تكررتْ على مسامعي خلال الطفولة. كانت هيلدا قد وَلدتْ، في أحد مستشفيات القاهرة، طفلاً ذكراً، تقرّرتْ تسميتُه «جيرالد»، إلاّ أنّه أصيب بالتهابٍ قضى من جرّائه بعيْد ولادته. وكبديلٍ جذريّ من كارثةٍ استشفائيّةٍ أخرى، سافر والداي إلى القدس خلال الصيف. وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر وُلِدتُ في المنزل على يد قابلةٍ يهودية، السيدة باير. وهي امرأة ألمانية الأصل، كبيرة، تَجْمع بين صراحةٍ حدَّ الفظاظة وطيبةِ قلبٍ، لا تتكلّم الإنكليزيّة بل تَرْطن بالعربيّة بلهجةٍ أجنبية ثقيلة ومعجمةٍ إلى درجةٍ مثيرةٍ للضحك. كانت تزورنا بانتظام لتراقِبَ نموّي، وتُكْثر من العناقات والقرصات والصفعات الحُبِّيّة. وهذا هو كلُّ ما أذكره عنها.

إلى العام ١٩٤٧، كانت إقاماتُنا المتقطِّعة في فلسطين ذاتَ طبيعةٍ عائليّةٍ صرفة، أيْ أنَّنا لم نكن نأتي أيَّ نشاطٍ كعائلة مصغّرة وإنّما يلازمنا دائماً سائرُ أفراد العشيرة... وذلك على العكس تماماً ممّا كان يحدث في القاهرة، حيث كنا متوحِّدين في بيئةٍ نَفْتقد فيها العلاقاتِ الفعليةَ، الأمرُ الذي زاد إحساسَنا بالتماسك الداخليّ. ذكرياتي الأولى عن فلسطين ذكرياتٌ عادية، والغريب أنَّها غير لافتة، قياساً إلى عميق انشغالي اللاحق بالشؤون الفلسطينيّة. كانت فلسطين مكاناً أُسَلِّم به تسليماً، بما هو الوطنُ الذي أنتمي إليه، يعيش فيه أقرباءُ وأصدقاءُ بطمأنينةٍ لا تحتاج إلى تفكّر (أو هكذا يبدو الأمرُ اليومَ في نظرةٍ استرجاعيّة).

يقع منزلُنا العائليُّ في الطالبيّة، وهو حيّ من القدس الغربية قليلُ السكّان، بناه وسَكَن فيه حصراً فلسطينيُّون مسيحيُّون من أمثالنا. والمنزل كنايةٌ عن ڤيللا حَجَريّة مهيبة من طبقتيْن، كثيرةِ الغرف، تُحْدِق بها حديقةٌ جميلةٌ نَلْعب فيها أنا وابنا عمّي

# مذكرات ادوارد سعيد

الأصغران وشقيقاتي. ويَصْعب الحديثُ عن جيرة فعلية، مع أنّنا كنّا نَعْرف جميع ساكني الحيّ الذي لم تكن معالمُه قد تبلورتْ بعدُ. أمام المنزل بورةٌ مستطيلة خالية، كنت ألعبُ فيها أو أرْكب درّاجتي. ولم يكن لنا جيرانٌ مباشرون، مع أنّك تَلْقى على مسافة خمسمئة ذراع تقريباً صفاً من الفيلات المشابهة يَسْكنها أصدقاءُ أبناء عمّي. اليوم، أضحتِ البورةُ حديقةً عامةً، والمنطقةُ المجاورة للبيت حيّاً فخماً يَسْكنه أغنياءُ اليهود.

عندما كنا نقطن مع عمتي نبيهة المترمّلة، وأبنائها الخمسةِ البالغين، كنتُ دائماً ألْهث لحاقاً بالتوأمَيْن روبرت وألبرت اللذيْن يكبرانني بنحو سبع سنوات؛ فلا استقلالَ لي ولا دورَ ألعبه، إلا دورَ ابنِ العم الأصغر، يستخدمانني بين الحين والآخر مكبّراً للصوت، عديمَ التفكير، كاملَ الطاعة، يُطْلِق الشتائمَ والكلماتِ البذيئةَ على أصدقائهما والأعداءِ من خلف الجدار، أو مستمِعاً مستكيناً إلى حكاياتهم التي لا نهاية لها. وكان ألبرت، بسحنته الفاسقة وفكاهته اللاهية، أقربَ مقاربةٍ عرفتُها لأخٍ أكبرَ أو صديقٍ حميم.

وكنّا غالباً ما نذهب إلى صَفَد نقضي الأسبوع بطوله مع الخال منير، الطبيب، وزوجتِه لطيفة، ولهما ابنان وابنةٌ في عمري تقريباً. كانت صَفَد تنتمي إلى عالمٍ آخر أقلَّ تطوراً: فلا كهرباء داخل البيوت، وكانت الطرقاتُ الخاليةُ من السيارات والمنحدراتُ السحيقةُ تَصْلح ملاعبَ رائعةً نَرْتع فيها. أما طبخُ امرأة خالي فلذيذُ المذاق إلى أبعد الحدود. بعد الحرب العالميّة الثانية، شكّلتْ زياراتُنا إلى القدس، وإلى صَفَد خصوصاً، فرصةً للإفلات من النظام الآخذِ بالإطباقِ عليّ في القاهرة بفضل تعزيزات يوميّة. ففي صفد أمضيتُ في الغالب أوقاتاً هانئةً تَقْطعها المدرسةُ أحياناً أو أحدُ الدروس الخصوصيّة، ولكنْ ليس لفترة طويلة.

وإذ استطالتِ الفتراتُ التي نقضيها في القاهرة، اكتسبتْ فلسطين طابعاً ناعِساً بل حُلُمياً. هناك كنتُ أتحرّر من ذلك الشعور الحادّ بالوحدة الذي أخذ يَقضّ مضجعي فيما بعد، حين بلغتُ الثامنةَ أو التاسعة. وعلى الرغم من أنّي كنتُ أشعر بانحسار وطأةِ التنظيم المُحْكَم للمكان والزمان، وهو تنظيمٌ كان محورَ حياتي في مصر، فإنّي لم أستطع الاستمتاع كلياً بذلك التحرر النسبيّ منه الذي عشتُه في القدس. كنتُ أرى إقامتي المقدسيّة سارّةً، لكنْ يعذّبني فيها أنّها طليقةٌ ومؤقّتةٌ بل زائلة. وقد تبيّن لاحقاً أنّها فعلاً كذلك.

أما جغرافيّة القاهرة وبيئتُها الأغنى دلالةً والأشدُّ كثافةً فكانتا تتركّزان بالنسبة إلينا في الزمالك، وهي الجزيرة التي تتوسّط النيلَ بين المدينة القديمة إلى الشرق والجيزةِ جهةَ الغرب، يَسْكنها الأجانبُ والأغنياءُ المحليون. وقد انتقل أهلي إلى الزمالك سنة ١٩٣٧ عندما كنتُ لا أزال في الثانية. وخلافاً للطالبية المتجانسةِ السكّان من تجّارٍ ومهنيّين ميسورين، لم تكن الزمالكُ تشكّل جماعةً موحّدةً وإنّما كانت أشبهَ بالمركز الكولونياليّ الأماميّ يتحكّم فيه الأوروبيّون الذين لم يكن لنا – أو لم يكد يكون لنا – اتصالٌ بهم. وقد أنشأْنا عالَمنا الخاصّ داخل الزمالك. وكان بيتُنا شقةً فسيحةً في الطبقة الخامسة من ١، شارع عزيز عثمان، تُطلّ على ما يسمّى «حديقة الأسماك» وهي منتزَهٌ صغيرٌ مسوَّرٌ ذو تلة اصطناعيّة (الـ«جبليّة») وحوضٍ صغيرٍ ومغارةٍ، تخترقه مرجاتٌ خضراءُ ومسالكُ متعرّجةٌ وتحفُّ به أشجارٌ كبيرة. وفي «الجبليّة» تشكيلاتٌ صخريّة ومنحدراتٌ، اصطناعيّةٌ هي أيضاً، نعدو عليها صعوداً أو نزولاً بلا انقطاع. وكنتُ أقضي جُلَّ أوقات اللعب في «الحديقة»، كما كنا نسمّيها، خلا أيامَ الآحاد والأعياد، دائماً قيدَ المراقبة، تحت مرمى صوتِ أمي يترامى إلينا، أنا وشقيقاتي، دائمَ الوضوح في غنائيّته.

هناك أمثّل أدوار «روبنسون كروزو» أو «طرزان» وألعب «الاستغمّاية»، عندما تنضمّ أمي إليّ، فأختفي عنها ثم أعود إليها. وكانت أمي تلازمنا باستمرارٍ تقريباً في أركان عالمنا الصغير، جزيرةً صغيرةً تُحْدِق بها جزيرةٌ أخرى. في تلك السنوات الأولى، كنتُ أرتاد مدرسةً تَبْعد بضعةَ صفوف من البنايات عن منزلنا، هي «مدرسة الجزيرة الإعداديّة». وللرياضة، كنّا نقصد «نادي الجزيرة الرياضيّ»، وفي عطل نهاية الأسبوع، «نادي المعادي الرياضيّ» حيث تعلّمتُ السباحة. ولسنواتٍ، كان يومُ الأحد يعني لنا «مدرسةَ الأحد»، تلك المحنةَ العبثيّةَ الواقعةَ بين التاسعة والعاشرة صباحاً في «إعداديّة الجزيرة» يليها القدّاسُ الصباحيُّ في «كاتدرائيّة جميع القدّيسين». أما في أماسيّ الآحاد، فكنتَ تجدنا في كنيسة الإرساليّة الأميركيّة في الأزبكيّة، نَتْلو – كلَّ أحديْن من ثلاثة آحاد – صلاةَ المساء في الكاتدرائيّة ذاتها. المدرسة، الكنيسة، النادي، الحديقة، البيت – كان هذا الحيّزُ المحصورُ والمحدّدُ بدقةٍ من هذه المدينة الجبارة يختصر عالمي كلَّه حتى سنواتٍ متأخّرةٍ من مراهقتي. وإذْ أضحى جدولُ أعمال حياتي أكثر تطلباً، فقد كانت الانحرافاتُ المؤقتةُ عنه بمثابة استراحاتٍ تَخْضع لإجازاتٍ صارمةٍ تعزّز من سطوته عليّ.

من الطقوس الترفيهيّة الأساسيّة لسنواتي القاهريّة «مشوارُ السيارة»، حَسْبَ تعبير أبي، تمييزاً له عن السَّوْق اليوميّ بالسيارة إلى العمل. خلال أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، كان أبي يملك مجموعةً من السيارات الأميركيّة السوداء، كلُّ واحدةٍ منها أكبرُ من سابقاتها: سيارة فورد، وسيارة بلايموث «سيدان» ممتازة، ثم اقتنى عامَ ١٩٤٨ سيارة كرايزلر «ليموزين»

ضخمة. وكان دائمَ الاستخدام للسّائقين، وقد أجاز لي التحدُّثَ مع اثنيْن منهم، فارس وعزيز، حين لا يكون معنا في السيارة. أما خلال رواحه إلى العمل وإيابه منه، فيصرّ على الصمت الكامل. وعندما أرافقه، يبدأ الرحلةَ من البيت في مزاجٍ بيتيٍّ، إذا جاز التعبير، مستجيباً لحديثي، إلى حدٍّ ما، بل قد يتكرّم عليَّ بابتسامة، إلى أن نبلغ «جسر البولاق» الذي يَصِلُ الزمالكَ باليابسة؛ وإذّاك ينكمش تدريجياً ويَصْمت، ثم يتناول أوراقاً من حقيبته ويأخذ يراجعها. ومع وصولنا إلى تقاطع «الإسعاف» و«المحاكم المختلطة»، على تخوم المركز التجاريّ الأوروبيّ، يكون قد انغلق دوني كلياً، فلا يجيب على أسئلتي بل لا يكاد يَعْترف بوجودي. هكذا يتحوّل أبي إلى ربّ عملٍ مهيب، أيْ إلى شخصيةٍ ما لبثتُ أن كرهتُها وخشيتُها، لأنّه كان يبدو فيها مثلَ نسخةٍ أضخمَ وأقلَّ آدميّةً عن الرجل الذي يُشْرِف على حياتي.

في الأماسيّ والأعياد، كان يستغني عن السائق ويأخذنا في «مشاوير سيارة» يقضيها هذا البطريركُ المضيافُ في الثرثرة والنكات، فأُدرك بطريقةٍ نصفِ واعيةٍ أنّ تلك المشاوير هي بمثابة انعتاقٍ له قبل أيّ شيء آخر. كان يَنْزع عنه السترةَ وربطةَ العنق، مقتصراً على القمصان ذاتِ الأكمام القصيرة أو ستراتِ الشتاء الرياضية، ويتّجه إلى واحدٍ من أمكنة ترفيهٍ معيّنةٍ سلَفاً: الـ «مينا هاوس»، بعد ظهر الأحد، لاحتساء الشاي والاستماع إلى حفلةٍ موسيقيّة متواضعة؛ وإلى «السدود» بعد ظهر أيام السبت، وهو كناية عن سدٍّ منمنمٍ بناه البريطانيون على دلتا النيل، تُحْدِق به المتنزهاتُ الخضراء وتخترقه سكّةٌ للعربات كانت وظيفتُها الغامضةُ تثير استيهاماتِ الهربِ لديّ (واستحالتَه كذلك)، نتجوّل فيها كما يحلو لنا، نأكل السندويتش هنا أو نَقْضم تفاحةً هناك، على مدى ساعتيْن أو ثلاث ساعات. أيامَ الأعياد كان محتوماً أن نعرّج على الأهرام في طريقنا إلى الصحراء الغربية، حيث نتوقّف عند نقطةٍ غير معيّنة، فنَفْرش بطانياتنا أرضاً ونُخْرج وجبةَ طعامٍ سخيةً، ثم نتسلّى بقذف حجارةٍ على أهدافٍ ما، والقفز على الحبل، واللعب بالكرة. وحدنا كنا، خمسةً أو ستةً أو سبعةً، بحسب درجة نموّ العائلة. لم نرْتَدْ مرةً مكاناً عاماً كمقهى أو مطعم، باستثناء الـ «مينا هاوس»، ولم نذهبْ مرةً برفقة أحد. ولم نقصدْ مرةً مكاناً معروفاً، بل نتوقّف عشوائياً في بقعةٍ ما متفرعةٍ من الطريق الصحراوية. وفي أماسيّ الأعياد، كنا نتجوّل جنوبيَّ «باب اللوق» حيث الأبنية الحكوميّة تتلألأ بألوف الأنوار الكهربائيّة ذاتِ الألوان الصفراء الرمليّة وبأضواء الـ «نيون» الخضراء الفاقعة. وكانت تلك الأبنية تشكّل «الإنارات»، كما يسمّيها أبي، نزورها بمناسبة عيد ميلاد الملك أو افتتاح دورات البرلمان.

وديع سعيد، ابو ادوارد سعيد، فرنسا ١٩١٧

لشِدّةِ ما كنتُ محمياً ومحْتَجَزاً داخلَ ذلك العالَم الصغيرِ الذي بناه أهلي، لازمني شعورٌ بأنّ وراء حدود العادات والرحلات المبرمَجَةِ بدقةٍ متناهية، عالماً كاملاً يتأهّب لاختراق السدود ليغمرَنا بلْ ليجرفَنا جرفاً تحت لُجَجِه. مطلعَ الأربعينيّات، كانت القاهرةُ مدينةً مكتظّةً بالسكّان إلى حدٍّ كبير، تمركَزَ فيها ألوفُ الجنود من جيوش الحلفاء خلال الحرب العالميّة الثانيّة، أضِفْ إليهم عدةَ جالياتٍ أجنبيّة كبيرة من إيطاليين وفرنسيين وإنكليز، ناهيك عن الأقليات القاطنة فيها أصلاً مثل اليهود والأرمن والسوريين ـ اللبنانيّين (الشوام) واليونانيِّين. وقد تُطالِعك بالمصادفة في القاهرة مسيرةٌ للجنود هنا، أو استعراضٌ عسكريٌّ هناك. ومع أنّ أبي وعدني مراراً بأن يأخذني إلى أحد المهرجانات العسكريّة الترفيهيّة، فقد أخْلَف بوعوده في كل مرة. في القدس، كما في القاهرة، شاهدتُ مسيرات الجنود البريطانيين وجنود الـ «أنزاك»[١] يَنْفخون في الأبواق ويَقْرعون الطبول، على أنّي لم أفْهم لِمَ كان يتمّ ذلك ولأجل مَنْ؟ فافترضتُ أنّ هدف أولئك الجنود في الحياة أسمى من هدفي أنا، وأنّه ـ مِن ثَمَّ ـ أعمقُ من أنْ أدركه.

ومن عاداتي في ذلك الزمان المعاينةُ الدائمةُ لواجهات المطاعم والملاهي المحظورة عليّ، تزيّنها يافطاتٌ تعلن: «نرحّب

١ ـ «القوات الأوسترالية النيوزيلاندية المشتركة». (المترجم)

# مذكرات

إدوارد سعيد

بكافة الرُتب»، فلم أفقه معناها هي أيضاً. وصَدَفَ أنّ أحد هذه الأمكنة المحظورة ـ مطعم «سولدز» ـ يقع في بناية «إيموبيليا» قُرْبَ «شركة السَّهم للقرطاسية» Arrow Stationary Company لصاحبها عمي أسعد (وهي هِبَةٌ له من أبي) وكان كثيراً ما يأخذني إليه. «أَطعِمِ الصبيّ»، يَنْهر عمي الموظَّفَ الناعسَ القابعَ وراء المنضدة المستطيلة، فأروح أَلْتَهِمُ سندويتشات الجبن واللفت المخلَّل حتى أُتْخَم. في البدء، ظننتُ أنّ عبارة «كافة الرتب» تعني أنّ المدنيِّين من أمثالي مسموحٌ لهم بالدخول، على أنّي سُرعان ما أدركتُ أني لا أملك أيّ رتبة. وكان مطعم «سولدز» والعم «آل»، كما كنا نسمّيه، يرمزان إلى برهةِ حريةٍ، مؤقتةٍ، قصيرةٍ جداً، بل زائلةٍ، نظراً لقوانين الغذاء الصارمة التي كانت تَفْرضها عليَّ أمي.

بحلول العام ١٩٤٣، بدأ والداي يَفْرضان عليّ نظامَهما الانضباطيّ بصرامةٍ كاملة، بحيث أنّ عبارة العم «آل» الصادرةَ من القلب ـ «أَطْعِم الصبيّ» ـ قد اكتسبتْ عندي، حين مغادرتي مصر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥١، عذوبةَ حنينٍ سخيفٍ وسعيدٍ معاً هيهاتَ أن تُستعاد. وعندما توفي العم «آل» في يافا بعد ذلك بأربع سنوات، كان مطعم «سولدز» قد أُغلق أبوابه هو أيضاً.

خلال النصف الأول من الحرب أَخَذْنا نقضي أوقاتاً أطول من المعتاد في فلسطين. عام ١٩٤٢ استأجَرْنا منزلاً لقضاء عطلة الصيف في رام الله، شمال القدس، ولم نعدْ إلى القاهرة إلا في تشرين الثاني/نوفمبر. ذلك الصيفُ غيّر مجرى حياة عائلتنا على نحوٍ دراماتيكيّ، إذْ طرا تحوّلٌ على تحركاتنا بين القاهرة والقدس، وقد كانت قَبْلاً فجائيةً ومرتبكةً. كنا نسافر عادةً في القطار من القاهرة إلى اللدّ مع اثنين من طاقم الخدم على الأقل، وكميةٍ كبيرةٍ من الأمتعة، ويُخيِّم علينا جوٌّ محموم، في حين أنّ العودة كانت دائماً أيسرَ وأقلَّ هياجاً. ولكنّنا في ذلك العام ١٩٤٢ لم نستقلَّ القطارَ، أنا وأمي وشقيقتاي روز ماري وجين وأبي، بل ارتحلنا بالسيارة. وبدلاً من ركوب قطار «الحافلات السريريّة» الفخم من محطة «باب الحديد» القاهريّة، للقيام برحلة الساعات الاثنتيْ عشرة إلى القدس، اضطررنا في أيار/مايو من ذلك العام إلى الفرار أمام زحف الجيش الألمانيّ المداهِم في سيارة أبي البلايموث السوداء، وقد طُلِيَتْ مصابيحُها باللون الأزرق للتعتيم، وتكدّستْ حقائبُنا الجلدية التي وضّبناها على عجلٍ فوق رفّ الأمتعة وداخل صندوق السيارة. استغرقتِ الرحلةُ إلى قناة السويس ساعاتٍ عديدةً التقيْنا خلالها عدة قوافل عسكريةٍ بريطانيّةٍ تتّجه صوب القاهرة، وهو ما اضطرنا إلى مجانبة الطريق والانتظار ريثما تمرّ الدباباتُ والشاحناتُ وناقلاتُ الجنود من أمامنا متجهةً إلى معركةٍ أسفرتْ عن هزيمةٍ لقوات الحلفاء سوف يَعْقبها هجومٌ بريطانيٌّ مضادّ تُوِّج بمعركة «العلمَيْن» في تشرين الثاني/نوفمبر.

اجتزنا الرحلة الطويلة ليلاً وفي صمت مُطْبق. وكان أبي يتعامل مع طرقات سيناء غير المحددةِ المعالم، بعد أن عَبَرْنا قناةَ السويس عند جسر القنطرة دون احتفالٍ ولا جلبة، إذ ألفيْنا مركزَ الجمارك مهجوراً عندما بلغناه بُعَيْدَ منتصف الليل. هناك التقينا السيارةَ المدنيةَ الوحيدةَ السائرةَ في الاتجاه نفسه، وكانت سيارةً مكشوفةً يقودها رجل أعمالٍ يهوديٌّ من القاهرة لا يصطحب معه أيّ راكبٍ ولا يَحمل من الحوائج غيرَ زجاجاتِ المياه المثلجة ومسدَّس. تَعَرَّفَ الرجلُ إلى أبي، واقترح أن نخفِّف عن البلايموث بعضاً من حمولتها ـ فنقلنا عدةَ حقائبَ ضخمةٍ إلى سيارته ـ وطَلَبَ، في المقابل، أن نَسْمح له بأن يسير في أعقابنا. أَذْكر جيداً التعبيرَ الذاهلَ المتْعَبَ على وجه أبي وهو يوافِقُ على هذا الترتيب الأعرج. وهكذا مضينا بصمتٍ خلال الليل، السيارةُ الثانية تحتَّ السيرَ وراء الأولى، ووالدي يتولّى بمفرده رفعَ الرمال عن الطريق الضيّقة الملتوية في تلك الليلة الليلاء ويتحمّل، فوق ذلك، ضغطَ عائلته الصغيرة داخل السيارة، فيما رجلُ الأعمال اليهوديُّ المصريُّ في الخارج يستعجله من الخلف، موقناً أنه يفرّ إنقاذاً لحياته.

في مَطْلع ذلك الشتاء سمعتُ صفّارات الإنذار تَزْعق إنذاراتِ الـ «الخطر» ثم تعود لتُطْلق إعلاناتِ الـ «أمان». وخلال غارةٍ ألمانيةٍ ليلية، بينما كنتُ فوق ذراعيْ أبي، مُلْتحفاً ببطانية، يحملني إلى المرآب ـ الملجإ، دَهَمَني شعورٌ استباقيٌّ غامضٌ بـ «أننا» في خطر. ومن الطبيعي أنّ المغزى السياسيّ، ناهيك عن العسكريّ، لِوَضْعنا، كان يتعدّى مداركَ الطفل ذي السنوات الست ونصف السنة الذي كنتُه. على أنّ أبي، بصفته مواطناً أميركياً في مصر، التي تنتظر إنزالاً للقوات الألمانيّة بقيادة رومل على الإسكندريّة فالقاهرة، لا بد أنّه فكر بأنّه مستهدَفٌ بمصيرٍ لا يُحسَد عليه. وكان قد غطّى جداراً كاملاً من مدخل المنزل بخرائط ضخمةٍ لآسيا وإفريقيا الشمالية وأوروبا. وكان كلَّ يوم يحرك الدبابيسَ الحمراء (قواتِ الحلفاء) والسوداءَ (قوات دُول المحور) من موقع إلى آخر لقياس التقدم والتراجع الذي يحقّقه كلٌّ من المعسكرَيْن المتنازعيْن. بَدَتْ لي الخرائطُ مثيرةً للقلق أكثرَ منها غزيرةَ المعلومات، فكنتُ أطالبه، بين وقتٍ وآخر، بأنْ يَشْرح لي مجريات الأمور، فيُعْضِله الأمرُ؛ وقد كان مشتَّتَ الذهن ومهموماً وشارداً. ثم غادَرْنا فجأةً إلى القدس في تلك الرحلة الليليّة الصعبة. يومَ تقرّرَ الرحيلُ، جاء إلى البيت لتناول الغداء وطلب من أمّي ببساطةٍ أن توضِّب الأمتعة وتتهيّأ للسفر، وانطلقنا عند الخامسة من بعد الظهر، تتهادى بنا السيارةُ في شوارع القاهرة شبهِ الخاوية. كان زمناً

موحشاً ومحيِّراً، نَهْجر فيه عالمي الأليفَ دون سبب، متّجِهين نحو الغسق الكئيب.

ظلّت صُوَر أبي في انغلاقه وصمته، وهي صُوَرٌ توالت خلال ذلك الصيف الطويل والمربكِ والغريبِ في رام الله، تراودني مدى سنوات: جالساً على الشرفة، محدّقاً في البعيد، يدخّن بلا انقطاع. «بلا ضجة، يا ادوارد»، تَنْهَرني أمي، «ألا ترى أنّ أباك يحاول أخذَ قسطٍ من الراحة؟». ثم نذهب في نزهةٍ في البلدة الوَرِيقة الأنيسة ذاتِ الأكثريّة المسيحيّة، شمالَ القدس، وأنا متشبّثٌ بتلابيبها بعصبيةٍ بالغة. لم يَرُقْني منزلُ رام الله، مع أنّه شكّلَ الإطارَ المثاليَّ لذهول أبي وكآبته في محنته الغامضة. وكان هناك درجٌ خارجيٌّ شديدُ الانحدار، يَصْعد موارباً من حديقةٍ يَفْصل بين أرجائها ممرٌّ حجريٌّ على جانبيْه أثلامٌ من التراب البُنّي لا يَنْبت فيها غيرُ بعضِ العلّيق، وثمة شجرتا سفرجلٍ هزيلتان تَحْرسان البيتَ بمحاذاة شرفة الطبقة الأولى حيث يقضي أبي جلَّ وقته. أما الطبقة الأرضيّة فمقفلة وخالية. ولما كنتُ قد مُنعتُ من الدَّوْس على الأثلام، فإنّه لم يبقَ لي من ملعبٍ غيرُ الممرّ الحجريّ الضيّق بين البوّابة والدَّرَج.

لم أفقهْ ما الخطب، لكنّ رام الله كانت المكانَ الأوّلَ الذي سمعتُ فيه عبارة «انهيار عصبيّ» مصحوبةً بضرورة الحرص على «راحة بال» أبي، وهي عبارةٌ اقتبَسَها من كتاب بالعنوان نفسه كان موضوعَ أحاديث عديدةٍ له مع أصدقائه. حَرَمَتْني صيفيّةُ رام الله، بكسلها المضني، ما أحتاج إليه بداهةً من تمحيصٍ وتفسيرٍ، أنا الطفلَ اللامعَ ذا السنوات الستّ والنصف. هل كان أبي يخشى شيئاً ما ـ أول سؤال وددتُ طرحه ـ: لماذا يَجْلس هنا تلك الفتراتِ المطوّلةَ ولا يتفوّه بكلمة؟ وجواباً على سؤالي، كانوا يَصْرفونني إلى نشاطٍ مفيد، أو يَفْرضون عليّ عقوبةً ما، أو يرمونني بإشاراتٍ ملغزةٍ وناقصةٍ لا تَشْفي الغليل. سمعتُهم يُعْربون عن قلقهم المتزايد من الارتفاع المباغت في ضغط دمه. وقيل أيضاً إنّه أرسل ابنَيْ عمي أسعد، أبي (إبراهيم) وشارلي، إلى أَسْمَرا، فانشغل بالُه ـ حتى المرض ـ من أن يتعرّضا للقتل هناك. وقيل أيضاً إنّ رجل أعمالٍ قاهرياً مشبوهاً حاول عَبَثاً إغراءَ أبي بصفقةٍ تجاريةٍ من صفقات الانتفاع من الحرب (وعرفتُ أنّ أبي رَفَضَ العرض). ولكنْ، هل تشكّل تلك الأحداثُ سبباً كافياً لانهيارٍ عصبيّ؟

مهما يكن السبب، فما إنْ عدتُ إلى القاهرة، حتى بدأ مسارُ تحوّلٍ في حياتي، بل شجّعتني أمي خصوصاً على الاعتقاد أنّ المرحلة الأَوْفر سعادةً والأقلّ إشكالاً من حياتنا قد ولّتْ إلى غير رجعة. فانتكستُ أكثرَ فأكثرَ في حالة عمومية من التسيُّب. «أنت شاطر جداً»، كانت تقول المرّةَ تلو

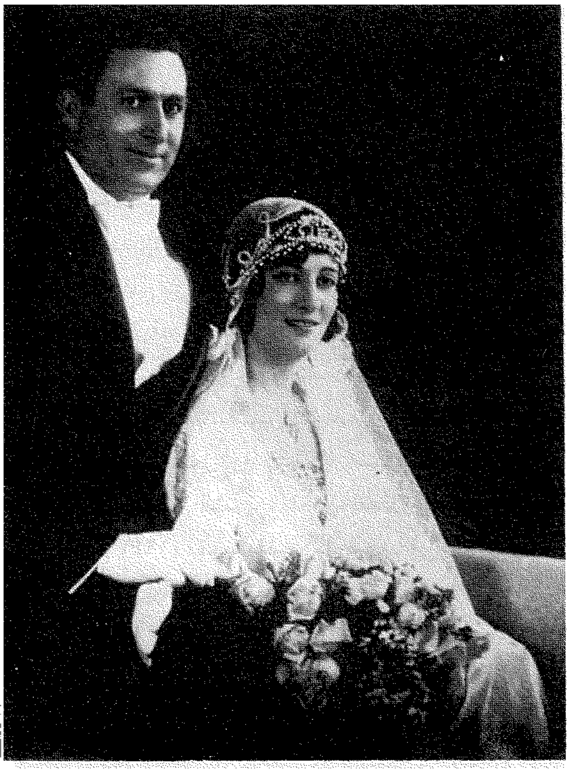

وديع سعيد وزوجته هيلدا، الناصرة ١٩٣٢

الأخرى، «لكنّكَ بلا شخصيّة وكسول وشيطان»، الخ. وقد حَدَّثَتْني أيضاً عن إدوارد سابق، يسمّونه أحياناً «إدواردو بيانكو»، وَرَوَتْ لي مآثره ومواهبَه وإنجازاتِه بما هي إرهاصاتُ وَعْدٍ مبكّرٍ لفترةٍ ما قبلَ ١٩٤٢ ما لبثتْ أن خُنِقتْ. ومنها علمتُ أنّ إدوارد ذاك حَفظَ عن ظهر قلبٍ ٣٨ أغنيةً وترنيمةً لتنويم الأطفال، يغنّيها أو يلقيها إلقاءً ببراعة كاملة، وهو لم يتجاوز السنةَ والنصفَ من العمر. وقصّت عليّ أيضاً أنّ ابن عمي أبي، عازفَ الـ «هارمونيكا» الماهر، دَسَّ، عن قصدٍ، نوطةً نشازاً في أدائه لأغنية «جون پيل»، فأَطْبق إدوارد قبضتَيْه وأَغْمَضَ عينيْه وزَعق انزعاجَه من النشاز ثم غنّى الجملةَ الموسيقيةَ الصحيحة... وأنّ إدوارد كان يَنْطق بجُملٍ كاملةٍ في الإنكليزية والعربية وهو لم يتجاوزْ الشهورَ الخمسةَ عشر، اللهم باستثناء استخدامه الهجينِ لـ «أنتَ»، بدلاً من «أنا»... وأنّ مَقْدرته على قراءة البسيط من النثر كانت ناميةً جداً وهو بعدُ في الثانية والنصف أو الثالثة... وأنّه أجاد الحسابَ والموسيقى في الثالثة أو الرابعة بمثلِ ما يجيدها ابنُ ثماني سنوات أو تسع. وقالت إنّ هذا الإدوارد السابق، المتقدّم على عمره، كان وسيماً، لعوباً، سريعَ الخاطر، حاذقاً، يستمتع باللعب الصاخب مع أبيه السعيد. لم أستذكر أيّاً من كل ذلك بنفسي، لكنّ نسجَ أمي الدائمَ على هذا المنوال، معزّزاً ببضعة «ألبومات» من الصور

# مذكرات ادوارد سعيد

الفوتوغرافية لتلك السنوات ـ بما فيها صورٌ عن صيفٍ رومانسيّ في الإسكندريّة ـ أكدّتْ مزاعمها.

غير أنّ كلّ تلك الذكريات، خلا الأسفَ على ما مضى، تبدّدتْ بعد أيام ١٩٤٢ الكئيبة. فقد عُدْنا إلى القاهرة في تشرين الثاني/نوفمبر بعد «معركة العَلَمَيْن»، وعُدْتُ أنا إلى «إعداديّة الجزيرة» صبياً كثيرَ المشاكل يَبْتكرون له علاجاً مزعِجاً تلوَ الآخر. فإذا أنا، من سنّ التاسعة إلى حين عيد ميلادي الخامس عشر، منشغلٌ أبداً بممارسة علاجاتٍ شفائيّةٍ شخصيّةٍ، بعد انتهاء الدروس وخلال عطل نهايات الأسبوع: من عزفٍ على البيانو، إلى القيام بالتمارين الرياضيّة، فالذهابِ إلى مدرسة الأحد، وركوبِ الخيل، والملاكمة... أضفْ إليها معاناةَ عُطَلِ الصيف في ضهور الشوير، المخدِّرةِ للعقل والمُحْكَمَةِ البرْمَجة: فبعد العام ١٩٤٣، أخَذْنا نقضي كلَّ صيف في تلك القرية المُمِلّةِ من قرى جبل لبنان التي تعلّقَ بها أبي أكثرَ من أيّ مكانٍ آخر على وجه الأرض. وكان والداي محورَ نظامٍ إداريٍّ متكاملٍ يتحكّم بوقتي دقيقةً بدقيقة ويحدِّد، بناءً عليه، موقفُ أبي حتى نهاية أيامه؛ وهو نظامٌ لم يَتْرك غيرَ فسحاتِ انفراجٍ نادرةٍ أستمتع بها وتَمْنحني الإحساسَ بأني منفلتٌ من قبضته.

مَزَجَ أبي في شخصه القسوةَ والصمتَ المُطْبق والعاطفةَ العجيبة، يَرْبط بينها جميعِها كَرَمٌ مفاجئٌ لم يُشْفِ غليلي، لسببٍ ما، وظللتُ، إلى فترةٍ جدّ متأخّرةٍ، عاجزاً عن صرفِ النظر عنها (كأنّ خطرها زال عنّي) أو عن فَهْمِها فهماً كلياً. ولكنْ، لمّا كانت قاعدةُ تلك البنيةِ الانضباطيّةِ المصمَّمةِ لتسيير حياتي قد انبثقتْ من مصائب العام ١٩٤٢، فإنّ خطر عدم الالتزام بوصفاتها المختلفة أوْرثني فزعاً من الانتكاس إلى حالة رهيبة من الفوضى الكاملة والضياع، وهو فزعٌ لا يزال يلازمني.

وسُرعانَ ما تجسَّدتْ تلك الحالةُ الخَطِرَةُ في إغراءات القاهرة، الجسديةِ منها والمعنوية، تناديني من خلف أسوار ذلك الروتين الحياتيّ المبرمَج بعناية والمُدار بصرامةٍ شديدة. فلم أخرجْ مرةً مع فتاةٍ، بلْ لم يُسمَحْ ليَ بأن أزور أماكنَ اللهو العامة أو المطاعم، ناهيك عن ارتيادها. وكان والداي يتناوبان على تحذيري دائماً من الاقتراب منَ الناس في الباص أو الحافلة، ومِنْ تناول المشروبات أو الأطعمة من محلٍ أو بسطة، والأهم أنّهما صوَّرا لي بيتَنا والعائلةَ على أنّهما الملجأُ الوحيدُ في زريبة الرذائلِ المحيطةِ بنا تلك.

أنْ أُنقِذ نفسي مما كان يحدث آنذاك: تلك هي المفارقةُ التي عشتُها. وتصوّرتُ أن الأسوأ منها هو الانهيارُ الكامل، ربّما كذاكَ الذي عاناه أبي في صيف العام ١٩٤٢. والواقع أنّ أبي انكبّ بعدَها جدّياً على إعادة بناء تجارته وتنظيمِ أوقات لَهْوِه، مركّزاً تركيزاً مستجدّاً على هذا الأخير مع تنامي ثروته المتسارع. وبحلول العام ١٩٥١، أقْلع عن الذهاب إلى مكتبه بعد الغداء، وبدأ يلعب «البريدج»، وقد تحوّلَ هذا إلى هَوَسه الأكبر، سبعةَ أيامٍ في الأسبوع، كلّ أسبوعٍ من أسابيع السنة، إلاّ حين يكون على سفر. كان يأتي إلى البيتَ لتناول الغَداء في الواحدة والنصف، ثم يستسلم لقيلولةٍ تستمرّ حتى الرابعة، يَأْخذه بَعْدَها السائقُ إلى النادي ليَلعب الورقَ حتى السابعة والنصف أو الثامنة. وقد يعود إلى لعب الورق بعد العشاء.

بعد عطلتنا الصيفيّة في رام الله، ظهرتْ مؤلّفاتٌ عديدةٌ لـ «إيلي كولبرتون» في أماكن مختلفة من شقتنا القاهريّة، ومعها أدواتُ لعب «البريدج» للاّعبِين المنفردين(١). كما ظَهَرَ غطاءٌ جديدٌ من اللبّاد الأخضر لطاولتَيْ لعب الورق القابلتيْن للطيّ اللتيْن كانتا عندنا. وكان أبي في أماسيّ الثلاثاء يَقْصد منزلَ فيليب سُوقي قربَ الأهرام للعب «البريدج». وعندما بَدَأْنا نقضي عُطلَ الصيف في ضهور الشوير، أخذ يلعب «البريدج» صباحاً في أحد المقاهي، ويُثنّي بعد الظهر، وأخيراً، يترأس، مساءً، طاولةَ اللعب في منزلنا أو عند أحدِ الأصدقاء. وقد ازدادتِ الهوةُ اتساعاً بيني وبينه بعد أن اكتشفتُ، واكتشفَ هو مع الأسف، أني مُفْتَقِدٌ لأية موهبةٍ في لعبة «البريدج». كان ذا طاقةٍ خارقةٍ على الألعاب التي تمارَس داخل البيوت، في حين لم أكن أجيد أياً منها. حاولَ أن يعلّمني لعب «الطاولة»، وكانت النتائجُ كارثيّةً. فبعد أن كان يراقبني وأنا أَعُدّ الخاناتِ بعناء، يَنْتزع حجرَ «الطاولة» من تحت إصبعي بنزقٍ وينقله بسرعة إلى الخانة الصحيحة قائلاً: «لماذا تَعُدّ الخاناتِ هكذا» ـ وهنا يأخذ بتقليدِ طريقةِ عَدّي للخانات، راسماً تكشيرةً بلهاءَ على وجهه، فكأنّني متخلّف عقلياً يسعى يائساً للانتقال من الخانةِ الثالثةِ إلى الخانة الرابعة ـ «عندما تكون هذه هي الطريقةَ الصحيحةَ للعدّ»؟. ثم يدعوني إلى اللّعِبِ مجدداً، إلا أنّه ينتهي إلى لعب المباراة كلّها بمفرده قائلاً: «إنّها أسرعُ هكذا!» ـ وأنا قابع قبالته لا أحرّك ساكناً: فقد لعب دوري ودوره معاً!

ما من لعبةِ ورقٍ لم يَعْرفها، أو طقسٍ من طقوس ملاهي الميْسر لم يسعَ لتعليمي إياه، ولكنْ بلا جدوى. ورغم أنّه شَرَحَ لي أكثر من ثلاثين مرةً كيفيةَ لعب البوكر والباكاراه، فإنّي لم أنجحْ في لعب هذا ولا ذاك.

خلال صيف ١٩٥٣، أيْ بعد عام على تعلّمي لعبَ الـ «بُول» في المدرسة الأميركية الداخليّة، ظننتُني قادراً على استدراجه بخبثٍ للعبِ مباراةِ «الكرة رقم ٨» في مقهى صغيرٍ في ضهور

١ ـ إيلي كولبرتون هو أحدُ كبارِ معلّمي «البريدج» في تلك الفترة. والمعلوم أنّ لعبة «البريدج» مباراة بين زوجَيْن من اللاعبين. (م)

# مذكرات

ادوارد سعيد

الشوير، قبالةَ «مقهى السيرك»[1]. نَسَبْتُ تردُّدَه إلى تخوّفه من الهزيمة، لكنه كان مجردَ حيلة. فقد أدركتُ لاحقاً أنَّه اصْطَنع التردُّدَ، وربما بعضَ الإعجابَ بي، لكي يشجِّعني على المضيّ في الأمر حتى النهاية. «هكذا نَلْعب البلياردَ في الولايات المتحدّة»، صِحْتُ صيحتي المظفَّرة شأنَ محترفٍ يتحدّث إلى مبتدئ، «أمّا إذا ضربتَ الكرةَ جانبياً، فتلك هي الطريقةُ الإنكليزيّة». أَسْقطتُ كرتيْن في الجيْب وأخطأتُ الثالثة. فتناوَلَ أبي عصا البليارد، وقد تحوّل فجأةً من هاوٍ متواضعٍ ومُحابٍ إلى لاعب محترفٍ مرهوبِ الجانب. لم تكن مباراتُنا تلك بالمباراة على الإطلاق، حتى عندما انتقلنا إلى طاولة البليارد ذي الكرات الثلاث حيث ظننتُ أني سأكون أوفَرَ حظاً. فقد رماني في حالة من الارتباكِ الكليّ والعجزِ دفعاني إلى التأتأة، فأخذتُ أُلقي باللائمة على العصا حيناً وعلى النادل الساخر حيناً آخر وعلى قلّة التمارين أحياناً. «إذاً، يسمونها الطريقةَ الإنكليزيّةَ!»، قال في طريقِ العودة إلى البيت، بلهجةٍ لاذعةٍ صادرةٍ عن لاعبٍ يسيطر سيطرةً مُحْكمةً على كل ضربةٍ ولفّة.

لقد أَعْفته الألعابُ من هَذَرِ الكلام، ومن بَذْلِ ما يتعدّى الحدَّ الأدنى من المشاعر. وربما لهذيْن السببيْن أدمن لعبَ الورق وقد بات عنده مبرِّرَ وجود. بل كان وسيلةً لإعلاء [تصعيد] الهواجس الرازحة عليه في قطاعٍ من الحياة رُسِمَتْ فيه القواعدُ سلَفاً ويسيطر عليه نظامٌ روتينيٌّ، ومَهْرباً من مواجهة البشر أو الأعمال أو المشكلات.

كان «البريدج» وألعابُ الورق عموماً جزءاً من استعادته لعافيته بعد أزمة العام ١٩٤٢. «إنَّها وسيلةٌ للاسترخاء»، على نحوِ ما قال مرةً أو مرتين، واصفاً تسليةً تَشْغله ما لا يقلّ عن اثنتيْ عشرة ساعةً يومياً خلال عطل الصيف، وأربع ساعاتٍ يومياً خلال أيام العمل. ولستُ أَذْكر فراغاً باعثاً علَى اليأس كتلك الأوقاتِ التي أُضطرُّ فيها، وأنا بَعْدُ صبيٌّ، إلى مراقبته وهو يلعب الورق. حين أكون جالساً إلى جانبه، كانت كلُّ ورقةٍ يَنْقفها على الطاولة، وكلُّ رهان، وكلُّ تشريحٍ مقتضبٍ يمارسه للدورة المنقضية، تُكرِّس خضوعي العقليّ والمعنويّ له وتُفاقم من إحساسي بسطوته عليّ. كان لا يوجِّه إليّ كلمةً واحدة، ولا يَلفت نظري إلى ما قد يكون مثيراً في الأوراق التي بيده؛ لا شيء غيرُ الرتابة اللامتناهية لمباراة لعب الورق، ورغبتِهِ الواضحةِ في أن أَحْضرها لأسبابٍ لم أتبيّنْها بعدُ.

كان الوقوفُ أو الجلوسُ قربه خلال السنوات الأولى بعد حادثة العام ١٩٤٢ بمثابة عقوبةٍ لي على إساءة التصرُّف، وفكرةٍ بدائيَّة تفتَّق عنها ذهنُ والديَّ لإبعادي عن المشاكل

**ادوارد واخته روزي باللباس الفلسطينيّ، القدس ١٩٤١**

عندما لا أكون في المدرسة أَوْ (وهو أمر أسوأ) خلال عطل الصيف في لبنان. وكان إجباري على مشاهدته يلعب الطاولة أو البريدج لساعاتٍ متواليةٍ تجربةً مخدِّرةً للذهن. بل إنَّ تلك الفترات من الملل الإلزاميّ كانت مطالعَ خطةٍ أشملَ للحدِّ من طاقتي على الشيطنة: «وديع، أرجوك، خُذِ الصبيَّ معك»، تقول أمي يائسةً، «إنَّه يسبِّب لي مشاكلَ كثيرةً». وحين لا تكون خدماتُ وديع متوافرةً، تُرْسلني أمي في مهمّةٍ طويلةٍ وعبثيةٍ، أو تأمرني: «اِخْلعْ ثيابَك واذْهبْ فوراً إلى السرير». ومعلومٌ أنّ الكتب والموسيقى وسائرَ أنواع التسلية ممنوعةٌ في السرير، ومثلُها الطعامُ والشراب. وممنوعٌ أيضاً إقفالُ باب غرفة نومي، وهو ما يَسْمح لأمي باقتحامها دون معوّقات ودون سابقِ إنذارٍ لتتأكد من أنّي متقيِّد بالتعليمات. أما الفائدة الوحيدة من تلك العقوبات القاتلة فهي أنِّي اكتشفتُ ثلاثة أحجار شطرنج في مؤخرة أحد الأدراج، فأخذتُ أتمرّن على رميها والتقاطها، حتى تعلّمتُ بمفردي فنَّ التلاعب البهلوانيّ بالكرات الثلاث...

**نيويورك**

١ ـ «البول»: لعبة بليارد ذي ستة جيوب، و١٥ كرةً مرقّمةً، وكرة واحدة غير مرقّمة. يستخدم اللاعبُ عصاه لضرب سائر الكرات، بواسطة الكرة غير المرقّمة، مستهدِفاً إنزالَها في الجيوب. في لعبة الـ «كرة رقم ٨»، كرةٌ سوداء تحمل الرقم ٨ يجب أن تكون آخرَ كرةٍ يُسقطها اللاعبُ في الجيْب. (م)